شعر وصف مظاهر العمران في القرنين السادس والسابع الهجريين؛ دراسة موضوعية وفنية

*مشهور عبد الرحمن الحبازي**

ملخـص

تناولت هذه الدراسة بعض ما قاله عدد من شعراء القرنين السادس والسابع الهجريين في وصف المظاهر العمرانية التي أثارت اهتمامهم، فوقفوا أمامها يصفونها، ويعبرون عن إعجابهم بها، وتقديرهم لدورها في المجتمع، وقد جاءت الدراسة الموضوعية في سبعة محاور رئيسة: وصف المدارس، ووصف المساجد، ووصف القصور والدور، ووصف المنارات والمآذن، ووصف الحمامات، ووصف المشافي، ووصف الإهرامات. أما الدراسة الفنية، فجاءت في محورين هما: الأسلوب واللغة، والصورة الفنّية.

وقد اعتمدت في الدراسة المنهج التاريخي في تتبع الشعر موطن الدراسة، وتحديد زمن حياة قائليه، والمنهج الوصفي التحليلي في توضيح الأوصاف التي استخدمها الشعراء.

وخلصت الدراسة إلى أن ما قاله الشعراء في وصف المظاهر العمرانية المدروسة توزع ما بين القصائد والمقطعات القصيرة، وأن الشعراء ركّبوا صورهم الشعرية من بيئاتهم، وكانت لغتهم واضحة وسهلة، وأساليبهم مرسلة مع اهتمام - غير مخل - ببعض ألوان البديع وبخاصة: الطباق، وحسن التقسيم، والتتميم، والمقابلة وغيرها.

الكلمـات الدالـة: مظاهر العمران، القرنين السادس والسابع الهجريين.

المقدمـة

استخلف الله سبحانه وتعالى الإنسان في هذه الأرض لعبادته، وعمارتها، وسخّر له ما فيها من خيرات، يفيد منها وفق ما شرعه له. وقد سعى الإنسان باستمرار إلى تحسين ظروف حياته على الأرض، والاستمتاع بحياته عليها، وقام من أجل ذلك ببناء كثير من مظاهر العمران، التي خلّدت على مر العصور.

كان للعرب والمسلمين دور مهم في إقامة كثير من مظاهر العمران، والمحافظة على ما ورثوه منها عن الأمم الأخرى، التي فتحوا بلادها، ودخل أهلها في الإسلام. وأول ما اهتم به المسلمون إقامة المساجد أماكن لعبادة الله، وشكره، وحمده على نعمه، ثم أقاموا القصور، والمنازل، والمدارس، والحمامات، والمشافي، وبنوا فيها وسائل عمرانية زادت من جمالها؛ وذلك في محاولة منهم لتجميل تلك المباني، وتزيينها؛ إظهاراً لنعم الله عليهم، ورغبة في الاستمتاع بالحياة الدنيا على أكمل وجه، ومضاهاة لما كان قائماً لدى الأمم الأخرى من مظاهر عمرانية، بحيث يشعر المسلمون؛ خاصتهم وعامتهم، على حد سواء، أنّهم ليسوا أقلّ من تلك الأمم في أي شأن من شؤون الحياة، وحتى في قضية العمران.

وفي فترة الدراسة ازداد اهتمام المسلمين ببناء بعض مظاهر العمران، مثل: المدارس، والمشافي، والحمامات، والقصور، والمنازل، وذلك على الرغم من كونها فترة اضطراب سياسي؛ إذ اجتاح فيها الفرنجة، والمغول بلاد المسلمين، وكثرت الصراعات، والمنازعات بين الممالك الإسلامية التي كانت كثيرة التغير.

تجول الشعراء في هذه البلاد الإسلامية، وكثر تنقّلهم بين الحكام المسلمين لأسباب كثيرة، ولأهداف عديدة، وقد وقع تحت أبصارهم مظاهر العمران المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، فوقفوا أمامها تثير إعجابهم، وتبعث في نفوسهم أسباب التأمل، ودواعي الوصف، ورغبوا في وصف بعضها وسيلة للوصول إلى عطاء أصحابها، أو تسجيلاً لدورها في حياة المجتمع المسلم، أو إظهاراً لعظمتها، وانبهاراً بهندستها، وزخارفها، وصورها، وحدائقها، وقناديلها، أو لأخذ العظة والعبرة منها.

ولما كان شعر الوصف وفيراً في الشعر العربي في العصور السابقة لفترة الدراسة، حتى قال فيه ابن رشيق

---

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القدس، فلسطين.
تاريخ استلام البحث 2008/5/29، وتاريخ قبوله 2009/1/19.

القيرواني: "إن الشعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف"[1].

فإنّه لم يقل في فترة الدراسة، عما كان عليه في العصور السابقة، وقد لاحظت من خلال مطالعاتي في دواوين عدد من الشعراء، وكتب التراجم، والأدب كثرة ما قاله الشعراء في وصف مظاهر العمران، فجمعت بعضه، ودرسته في هذا البحث دراسة موضوعية، وفنية.

وقد اعتمدت في هذا البحث المنهج التاريخي في تتبع النصوص الشعرية الوصفية، ونسبتها إلى شعراء فترة الدراسة، والمنهج الوصفي والتحليلي في الدراسة الموضوعية، والفنية. وقد جاءت الدراسة وفق الآتي:

1- وصف المدارس

يقصد بالمدارس التي سأتحدث عنها دور العلم المنظمة، التي يقصدها الطلبة، وتصرف لهم فيها أرزاق، ويدرسهم مدرسون لهم رواتب، يختارهم الواقف، ويجازون بأنواع العلوم المختلفة. ويعود ظهور هذه المدارس في الحضارة الإسلامية إلى أواخر القرن الرابع الهجري، ثم عرفت بشكل واسع في القرنين الخامس والسادس الهجريين[2].

وقد كثرت المدارس كثرة غير معهودة في عصور الزنكيين، والأيوبيين، وبداية المماليك، ويستدل على ذلك بما أورده ابن جبير في رحلته، فقد عد المدارس في الإسكندرية من مناقبها، ومفاخرها، وأن الطلبة كانوا يفدون إليها من الأقطار النائية، فيوفر لهم المأوى والمدرس الذي يعلّمه ما يريد، ويجري عليه من المال ما يكفيه[3]. وفي القاهرة، ومصر وجدت مدارس كان يفد إليها الغرباء، والعلماء، والصلحاء، والفقراء. وكان يصرف لها مرتّب شهري. وكان فضل السلطان صلاح الدين الأيوبي يعم كل من يأتي إليها ويسكنها[4]. ووجد في الناحية الشرقية من بغداد ثلاثين مدرسة عظيمة البناء، وتفوق القصور في حسنها. وأعظمها وأشهرها المدرسة النظامية. ولها أوقاف، وعقارات يعود نفعها إلى الفقهاء المدرسين بها، ويصرف منها على الطلبة ما يكفيهم. وهي مفخرة بغداد[5]. وفي الموصل وجدت ست مدارس أو أزيد، بناؤها مثل بناء القصور المشرفة[6]. وفي حلب وجد نحو خمس، أو ست مدارس، منها مدرسة مجاورة للجامع" وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء، وغرابة صنعة"[7]. وكان في دمشق نحو عشرين مدرسة، ومنها مدرسة نور الدين محمود زنكي، التي كانت من أحسن مدارس الدنيا منظراً، وهي قصر من القصور الأنيقة[8].

والحقيقة أن كثرة المدارس في هذه الفترة تعود إلى إقبال الحكام، والسلاطين على إنشائها، فضلاً عن العتقاء، والخصيان، والإماء، والبنات، وأهل الخير من بنات الملوك، والملكات، والقادة، والسادة، والتجار الميسورين. وكان يعلّم فيها كل أنواع العلوم المعروفة في ذلك الوقت من المذاهب الفقهية، والقرآن الكريم، والحديث الشريف، والطب، والصيدلة، والكحالة، والهندسة[9].

وقد أدى انتشار هذه المدارس، واهتمام الناس بها، إلى إكثار الشعراء من وصفها، وذكر الاحتفالات ببنائها، والإشادة بفضلها على الأمة، وغير ذلك من الأمور. وممن وصفها من الشعراء في هذ الفترة:

أ- حسان بن نمير المعروف بعرقلة الكلبي (ت567/1171)

قال يصف المدرسة النورية الكبرى[10]، التي بناها نور الدين محمود زنكي لأصحاب الإمام أبي حنيفة النعمان:[11]

ومدرسة سيدرس كـل شيء
وتبقى في حمى علمٍ ونُسـك
تضوع ذكرها شرقاً وغربـاً
بنُورِ الدين محمود بن زنكي
يقولُ وقولُه حق وصـدقٌ
بغَيرِ كنايـة وبغيـرِ شـك
دمشقُ في المدائنِ بيتُ ملْكي
وهذي في المدارسِ بيت ملكي

المدرسة النورية ستبقى مكاناً للمتعلمين والنّساك، وقد انتشرت سمعتها، وذاع صيتها في مشارق الأرض، ومغاربها، وذلك بفضل ما أنفقه في بنائها نور الدين الزنكي، الذي أرادها أن تفاخر مدارس الدنيا، كما جعل دمشق، عاصمة ملكه، تفاخر غيرها من المدن. إنّه يجعل المدرسة النورية تفخر على كل المدارس بفضل عناية بانيها نور الدين زنكي بها.

ب- أبو الفضل بن منقذ الكناني من شعراء القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي قال في وصف مدارس دمشق:[12]

ومدارسٍ لم تأتها في مشْكلٍ
إلا وجدتَ فتى يحل المشْكلا
ما أمها امرؤٌ يكابد حيـرةً
وخَصاصةً إلاّ اهتدى وتمولا
وبها وقوفٌ لا يزالُ مغلـها
يستنفذُ الأسرى ويغْني العيلا

وأئمةٌ تُلقي الدروس، وسـادةٌ
تُشْفي النّفوس، وداؤها قَدْ أَعضلا
ومعاشر تَخذوا الصنائع مكْسباً
وأَفاضلٌ حفظوا العلوم تَجملا

هنا يبين ابن منقذ فضل مدارس دمشق، وأهميتها، وما توفّره لطلابها، وأنواع العلوم التي تُدرس فيها، فهي تساعد الناس في حلّ مشكلاتهم، وتستقبل كل صنوف طلاب العلم، وتوفر لهم نفقاتهم اليومية. ولها أوقاف كثيرة ينفق من ريعها في فداء الأسرى، وسد حاجة الفقراء، وهي تعلّم العلوم الشرعية، والطبية، وعلماؤها منهم من يعمل لكسب عيشه، ومنهم المتطوع. إنها صورة جميلة لما كانت تقوم به مدارس دمشق في تلك الفترة، وهي لا تكاد توجد حتى في بعض مدارس الدول المتقدمة، والغنية الآن.

ج- أبو الحسن علي بن محمد، المعروف بابن النّبيه المصري (ت619/1222)، قال في علم الدين بن الملك الكامل الأيوبي حين وقف على عمارة المدرسة:[13]

أيا منْعماً شُكْري له الواجب الأولى
ويا مخْلصاً ـ في السر والنجوى
خرجتَ لِتَرتيبِ البناء فَلْـو رأى
سليمان ما شَيدتَه قال: لا أقوى[14]
فكم بنيتْ من قَبلها من مـدارسٍ
ولكنهم ما أسسوهـا على التقوى

بناء هذه المدرسة فريد من نوعه، حتى إن سليمان عليه السلام لو رآه لتعجب منه، وقال: لا أستطيع بناء مثله، وقد بنيت مدارس كثيرة قبلها لكنّها تفوقت عليها كُلها؛ إذ بنيت على أساس من التقوى، ومخافة ا جلّ شأنه. وفي ذلك اقتباس من قوله تعالى: **لمسجِد أُسس على التقْوى من أول يومٍ أَحق َأن تَقُوم فيه** [15]

د- أحمد بن المظفر الرازي من شعراء القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. قال من قصيدة مدح بها الخليفة المنتصر با العباسي، ويذكر المدرسة المستنصرية، وكان معيداً بها[16]:

بنَى بنْيـةً شماء يلْقَى بهـا العـلا
ونيلَ الأماني والأمـاني الفضائلُ
لهـا شرفٌ فـوقَ السمـاء قبابهـا
ومنزلةٌ من دونهـا النجـم آفـِلُ
فَأشْرقَ وجـه الدينِ والدين شاحـب
وأورقَ روض الشرعِ والروض ذابلُ
وجـدد رسم العلْـمِ والعـلم دارس
وزين جيد الفضل والفضلُ عاطـلُ

الشاعر هنا يشيد بصفات المدرسة، ودورها في المجتمع، وسيلة لمدح بانيها الخليفة المستنصر با العباسي، فهي عالية البناء، نال الخليفة ببنائها ما كان يتمنّاه من الفضائل، ومكانتها تعلو مكانة نجوم السماء، وقد تركت أثراً واضحاً في العلوم الشرعية التي عاد لها إشراقها، وفي العلوم العقلية التي بعثت فيها الحياة، وفي نشر الفضائل والأخلاق الحسنة بعدما كانت قد غابت عن المجتمع.

هـ- أبو الحسن يحيى بن عبد العظيم الجزار (ت679/ 1280).

قال بمناسبة افتتاح المدرسة الظاهرية سنة 1263/662[17]، التي بناها السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (ت1277/676) في القاهرة، وقد عمل بهذه المناسبة احتفالاً حضره أهل العلم، وجلس طلبة العلم كل في مكانه المخصص له، وتلقّوا العلم على شيوخهم، ثم تناظروا في العلوم، ثم مد أسمطة الطعام، فأكل الحضور كلّهم، وكان منهم ثلاثة شعراء، وصفوا هذا الحدث، فقال الجزار فيها:[18]

أَلا هكذا يبني المدارِس من بنى
ومن يتَعالى في الثوابِ وفي الثّنا
لقد ظهرتْ للظاهرِ الملْك همةٌ
بها اليوم في الدارينِ قد بلَغَ المنى
تجمع فيها كل حسنٍ مفَرق
فراقَـتْ قُلـوباً للأنـامِ وأعيـنا
ومذْ جاورتْ قلْب الشهيد فنفسه النْـ
ـنَفيسةُ منْها في سرورٍ وفي هنا
وما هي إلاّ جنّةُ الخُلْد أُزلِفَتْ
له في غَـد فاختار تعجيلَـها هنا

يحث الشاعر على بناء المدارس طلباً للثواب من ا ، وثناء الناس في الدنيا، كما فعل الملك الظاهر بيبرس، الذي بني الظاهرية بهمة جعلته يحصل ما كان يتمنّاه في الدارين، وذلك أنه زينها، وزخرفها بكلّ ما يجعلها جميلة، حتى بدت جنّة عدن، فأقرت عيون الناس وقلوبهم، وعاشوا في سرور وهناء. وقد زاد من قيمة المدرسة عندما اقتبس - في البيت الأخير - ألفاظاً قرآنية لوصفها، وذلك من قوله تعالى **وأُزلِفَتُ الجنّةُ لِلْمُتّقين** [19].

و- عمر بن محمد بن حسن، المعروف بالسراج الوراق (ت1295/695)، قال من قصيدة مدح بها السلطان الظاهر بيبرس؛ ووصف المدرسة ذاتها:[20]

مليك له في العلْـم حب وأهله
فللّـه حـب ليس فيه مـلام

فشيدها لِلْعلم مدرسـةً غـدا
عـراقٌ إليـها شيقٌ وشـآم

ولا تذْكُرن يوماً نظاميةً لها
فليس يضاهي ذا النظامِ نظام

ولا تَذْكُرن ملكاً فبيبرس مالك
وكـل مليك في يديه غُـلام

ولما بناها زعزعتْ كُل بيعة
متى لاح صبح فاستقَر ظلام

وقد برزت كالروضِ في الحسنِ أنبأتْ
بأن يديه في النّـوال غمـام

ألم تَر محراباً كأن أزاهراً
تفتّح عنْهـن الغـَداةُ كمـام

يشيد الشاعر بحب الملك الظاهر للعلم، وبنائه الظاهرية، فاشتاق إليها العراق والشام على ما فيهما من مدارس كثيرة، وفضلها على النظامية ببغداد. وبناؤها زعزع أركان أماكن عبادة غير المسلمين، لأنها أنارت للناس طريق الهداية. وزينها فبدت للناظر كالروضة الغناء، يفيض عليها الظاهر بالمخصصات المادية، فيستمر عطاؤها، وبدا محرابها منيراً بأهل العلم كالزهرة المتفتحة.

ز- وقال الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشّاب من شعراء القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي من قصيدة مدح فيها السلطان الظاهر بيبرس، ووصف المدرسة ذاتها[21]:

وترفّعتْ لِعـلاه خير مـدارسٍ
حلّتْ بها العلمـاء والفُضـلاء

إنّها خير المدارس في الأرض، أسكنها العلماء والفضلاء؛ لكي ينشروا علمهم بين الناس.

ح- محمد بن سعيد البوصيري (ت1296/696).

قال من قصيدة طويلة مدح بها الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي (ت1290/689)، عندما بنى مارستاناً، وقبة، ومدرسة للحديث سنة (1285/684). قال يصف المدرسة[22]:

ومدرسـةٌ ود الخورنَقُ أنّـه
لديها حظير والسرير غَديـر

مدينَةُ علْمٍ والمدارِس حولـها
قُرى أو نُجوم بدرهن منيـر

تبدتْ فأخْفى الظّاهريةَ نورها
وليس بظُهرٍ للنجومِ ظُهـور

بناء كأن النحلَ هندس شكْلَـه
ولانَتْ له كالشّمعِ منْه صخور

ومنها:

ثمانيةٌ في الجو يحملُ عرشَها
وبعض لبعضٍ في البناء ظهير

يرى من يراها أن رافع سمكها
على فعل ما أعيا الملوك قديـر

يصف البوصيري المدرسة بأنها تفوق في عظمة بنائها قصري الخورنق والسدير المشهورين، وهي مقارنة بغيرها من المدارس كالمدينة إلى القرى، لا بل هي البدر المنير، وغيرها نجوم تحيط بها، ونورها أخفى نور المدرسة الظاهرية كما تخفي الشمس نور النجوم، وبناؤها حسن الهندسة كأنه بيوت النحل في اتقانه، ثم يبين أنها قائمة على ثمانية أعمدة تعاون المهندسون على إتقانها. وقد زاد من جمالها اقتباسه معان دينية لها.

2- وصف المساجد

المسجد والمسجِد: الذي يسجد فيه، وكل موضع يتعبد فيه فهو مسجِد. والمسجد الجامع: الذي يجمع أهلَه، ومسجد اليوم الجامع[23]. وبذلك يظهر أن المسجد يكون صغيراً، والجامع يكون كبيراً يجمع المصلّين أيام الجمع والأعياد. والمسجد مهم في المجتمع الإسلامي؛ إذ أول عمل قام به الرسول صلى ا عليه وسلّم، بعد وصوله المدينة المنورة مهاجراً من مكّة المكرمة هو بناء المسجد شعار دولة الإسلام. ولم يهتم المسلمون أول أمرهم بتزيين المساجد، وتنميقها. إلى أن ولي معاوية بن أبي سفيان الشام حيث اهتم بجلالها، وجمالها. وتبعه خلفاء بني أمية في الاهتمام بزخرفة المساجد، وتنميقها[24]. وهكذا سار من بعدهم الحكام المسلمون، فبنيت مساجد، وجوامع آية في الزخرفة، والجمال، ولا زالت قائمة حتى وقتنا الحاضر.

نظر الشعراء إلى هذه المساجد نظرة إعجاب، وفخر، فوصفوها، ومدحوا بناتها، وأشادوا بها، وسجلوا ما كان يجري من احتفالات يوم افتتاحها، كما أشادوا بدورها التعليمي في المجتمع المسلم. وقد عثرت في فترة الدراسة على كثير من الأشعار التي قيلت في وصف المساجد، والجوامع الإسلامية، ومنها:

أ- قال علي بن منصور السروجي من شعراء القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي يصف دمشق وجامع بني أمية فيها:[25]

في كل قصرٍ بها للعلمِ مدرسـةٌ
وجامع جامـع للدين معمـور

كأن حيطانَه زهر الربيع فمـا
يمله الطّرفُ فهو الدهر منظور

يتْلى القُران به في كُل ناحيـة
والعلـم يذْكَـر فيه والتفاسيـر

هنا يصفُ جامع بني ُأمية بأنه عامر بعلماء الشريعة، وطلابها. وزخارف جدرانه البديعة كأنها زهر الربيع فلا تملها العيون لجمالها، وتسمع في كل أنحائه قراءة القرآن، وتفسيره، وغيره من دروس العلم المتنوعة.

ب- قال علي بن عمر بن قزل المشد (ت 1258/656) من قصيدة يصف فيها دمشق، وجامعها[26]:

فجـامعهـا إن تأمـلْـتَه
فقَصر من اللؤلؤ المنْتَخَـب

يبدو جامع بني أمية للمتأمل له ليلاً، وكأنّه قصر بني من لؤلؤ تم اختياره بعناية فائقة.

ج- ويظهر أن المسلمين كانوا يحرصون على الاحتفال بالأعياد الدينية، ويظهرون في احتفالاتهم أنواع البهجة والسرور، ويزينون المساجد، وينشدون أناشيد دينية، ويرتلاون القرآن، ويقرأون الأذكار. ومن ضمن احتفالاتهم كان الاحتفال بليلة النصف من شعبان، وفيها كانوا يضيؤون الثريات، ويقومون بالصلوات، والدعاء، والتكبير والأذكار[27].

وقد وصف ابن قزل المشد الجامع الأموي ليلة النّصف من شعبان حيث أضاءته القناديل، فانعكست أضواؤها في أرجائه، فقال[28]:

لم أنس بالجامع المعمورِ حين بدتْ
فيه القناديلُ في نـورٍ وأَضواء

كأنهـا وعيون الشّمـس ترمقُهـا
لمع الكواكبِ في صاف من الماء

ووصف محمد بن سوار بن إسرائيل (ت1278/677) الجامع الأموي في هذه المناسبة، فقال: [29]

ما أحسن الجامع في ليلة النصـ
ـف وقد لاح عليه السرور

وَأشْبهـتْ زهـر قنَاديلـه
كاسات راحٍ للندامى تـدور

وقارن النسر الثريا بـه
وقابلَ البدر هناك البدور

هنا يثير منظر الجامع - في نفس الشاعر - الإعجاب في ليلة النصف من شعبان، فيبث فيه الحياة، ويجعله يبدو فرحاً مسروراً، وذلك كناية عمن يحتفلون به، ويشبه أنوار قناديل الجامع في تلألئها، بكاسات الخمر تدور على السكارى، ويجعل قبة النّسر[30] مثل نجم الثّريا، والمصلون وإمامهم مثل البدور في حسن وجوههم وإشراقها.

وقال:[31]

مـا مثلُ جامعنا ومثلُ وقيـده
كضياء طلعةَ شاهدي ومواصلي

وكأن ذاك الوجه قنديلٌ يـرى
ومن العذارِ معلـقٌ بسلاسـل

إنّه يشبه ضياء القناديل المنبعثة في أرجاء الجامع بالضياء التي يشاهدها في مجلسه الصوفي، ويشبه الوجه الذي يراه بالقنديل المشتعل، وعذاريه السوداوين بالسلاسل التي يعلّق بها القنديل.

ووصفه محيي الدين عبد ا بن عبد الظاهر (ت1292/692) في ليلة النصف من شعبان أيضاً، فقال[32]:

كم للناس فيهـا لاح بـدر
يروقُ العين منظره الوسيم

بدا وبدا الوقود فقُلْتُ بـدر
لِخدمته ترجلَـت النجـوم

زينة المسجد الأموي، ليلة النصف من شعبان، تجعله يظهر في عيون الناس مثل البدر الساطع تحفّه النّجوم اللامعة، وكأنّه الملك بأبهة الملْك، يتنافس خدمه على خدمته.

وقال ابن البارزي الحموي، إبراهيم بن المسلم (ت1270/669)، بيتين في وصفه، ودمشق[33]:

دمشقُ لها منظـر رائـقُ
وكل إلى وصلهـا تائِـقُ

وأنّى يقـاس بهـا بلـدةٌ
أبى ا ُ والجامع الفـارقُ

هنا يجعل الجامع الأموي علامة فارقة، ومميزة لدمشق عن غيرها من المدن. ما يجعل النّاس يتشوقون لزيارتها.

وفي سنة 1213/610 أمر السلطان العادل أبو بكر، أخو صلاح الدين الأيوبي (ت1218/615) أن توضع - أيام الجمع - سلاسل على أبواب الجامع الأموي، لمنع الخيل من الوصول إلى قريب منه صيانة للمسلمين من أذاها[34]، فاستغل ذلك الشاعر ابن عنين (ت1232/630)، وبث الحياة

في الجامع، فأنطقه ليعرض بالقائمين عليه، الذين يأكلون أمواله، ويسخر من خطيبه، وقاضي القضاة، قال[35]:

لما رأى الجامع أمواله
مأكولةً مـا بين نُوابه
جن فمن خوف عليه غدا
مسلْسلاً من كُل أبوابه
وكيفَ لا تعتاده جِنةٌ
وقد رأى المسخَ لأربابه
القرد في شُباكه حاكم
والتّيس في قبة محرابه

الجامع الأموي لم يطق أن يأكل القائمان عليه أمواله، فأصيب بالجنون، ما استدعى تقييده بالسلاسل، ثم يستغرب أن لا يصاب بالجنون، وقد تحقّق أن القائمين عليه قد مسخا، فالقاضي أصبح قرداً، والخطيب تَيساً.

د- ووصف عدد من الشعراء جامع مصر في ليلة أمطرت السماء فيها مطراً خفيفاً، وقناديله مشتعلة، ومنهم ابن الذّروي، علي بن يحيى (ت1181/577)، قال[36]:

أيا حسن جامع مصرٍ وقد
تروى من الوابل المغْدق
وضوء القَناديل من فوقه
كأسطُرِ تبرٍ على مهرق[37]

بدا جامع مصر بعد المطر في أحسن صورة، وزاد في جمال الصورة ضوء القناديل الذي يسقط عليه، فظهر كأنّه سطور ذهبية كتبت، وطرزت في صحيفة أو ثوب حرير أبيض.

هـ- وفي سنة (1234/632) بنى الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر (ت1237/635)، جامع التوبة[38] مكان خان الزنجاري الذي كان به كلّ مكروه، وولّي خطابته العماد الواسطي الذي كان يمارس المنكرات، فقال ابن عنين على لسان الجامع يخاطب الملك الأشرف[39]:

جامع التوبـة قـد
حملني منْهـُ أمـانَه
قال: قُلْ للملك الأشـ
ـرف أعلا ا ُ شانَه
لي إمـام واسـطي
يعشَقُ الخمر ديانَـه
والذي قد كـان من
قبل يغنّي بالجِفانَه[40]
فكما كُنْتُ وما زِلْـ
ـتُ ولا أبرح حانَه
فأعدني النّمـطَ الأو
لَ واستَرِقْ ضمانَه

رسالة الجامع إلى بانيه هي: أن إمامه يعشق الخمر عقيدة له، والإمام الذي قبله كان يتغنّى بها، وعليه فإن الهدف من بنائه لم يتحقّق، إذ إنه كان حانة خمر عندما كان خانا، وما زال، فالأولى أن يعود إلى أصله.

3- وصف القصور والدور

تفنّن المسلمون في بناء قصور، ودور يأوون إليها، ويرتاحون فيها من عناء الحياة، وقد أبدع الشعراء في فترة الدراسة في وصف ما وقفوا عليه من قصور ودور، ومن ذلك:

أ- قال أبو جعفر الحسيني، محمد بن محمد (ت1116/510) من مقطّعة يصف فيها داره[41]:

ومصقولة الأرجاء ملْثومة الثّرى
إلى جنّة الفردوسِ تُعزى وتنسب
تخالُ بأُولى نظـرة أن درهـا
ينثّـَر أو عقيانهـا[42] يتصوب

يصف أنحاء الدار بأنّها ملساء ناعمة، وثراها لجماله يكاد يغري من يطأه بتقبيله، وهي بذلك كأنّها جزء من جنّة عدن، وتبدو للنظرة الأولى، وكأن الدر ينثر في ساحاتها، والذّهب يصب فيها.

ب- وقال ابن قلاقس، نصر ا بن عبد ا (ت1171/567)، من قصيدة كتبت على ظهر قصر علي بن عبد الوهاب بن خليف[43]:

قصر بمدرجه النّسيم تحدثتْ
فيه بسـر رياضهـا المستورِ
خفض الخورنقَ والسدير سموه
وثنَى قصور الرومِ ذاتَ قصورِ
لاثَ الغمـام عمامـةً مسكيةً
فأقام في أرضٍ مـن الكافـورِ
غرى البديع به فجانس وصفَه
فافتر عـن نُورٍ يروقُ ونُـورِ

إنّه قصر يسير في جنباته النّسيم العليل، فيفشي أسرار رياضه الجميلة، ويتفوقُ على قصري الخورنق والسدير، وقصور الروم على عظمتها، ومكانتها العالية عند العرب والروم، وهو لارتفاعه الشاهق، اتخذ من السحاب عمامة

ذكية الرائحة، فبدا وكأنّه يقيم في أرض من الكافور، وذلك كناية عن استمرار تلك الرائحة الطيبة فيه.

ج- وقال أسعد بن يحيى السنجاري (ت1225/622) من قصيدة يصف فيها دار العدل بدمشق سنة 1175/571[44]:

يا ظبيةَ الهرمينِ من مصرِ على الر
بـع السلام وإن تقوض أو عفَا

إنّه يشبه دار العدل في عظمها وأهميتها بالهرمين في مصر.

د- وقال ابن النبيه المصري، علي بن محمد (ت619/ 1222) من قصيدة يمدح فيها الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي، ووصف داراً بناها بقلعة أخلاط[45]:

سقَى ا ُ من أَعلامِ أخلاط قلْعـةً
يحوم بها نسر السماء على وكْـرِ
وداراً على خيرِ الطّوالعِ أُسسـتْ
فمن حل فيها في أمانٍ من الدهـرِ
يجلّي صدا الأبصارِ لمع بياضهـا
فتحسبها قـد أُلْبِستْ بهجةَ الـدرِ
وقد أنبتَتْ أركانُهـا من نُقوشهـا
تماثيلَ روضٍ لم يزلْ يانع الزهـرِ
تكاد تمـس المسك من نسماتهـا
ويقطُـر من أرجائهـا ورقُ التبرِ
تسر وتُلْهـي ساكنيهـا بحسنهـا
فإن شئْتَ أَغْنَتْ عن غناء وعن خمرِ
إذا فُتحـتْ أبـواب مشْترفاتهـا
جلَتْ لك نون البحرِ[46] والوحشَ في البر
فإن شئتَ للأخرى فمحراب ناسـِك
وإن شئْتَ للدنيا فريحانَـ ـةُ العمرِ

هنا يصف ابن النبيه دار الملك الأشرف بأنّها: كالعلم في قلعة أخلاط، ولعلوها تبحث فيها النسور عن أوكار لها، وأُسست على خير الأماكن المرتفعة، وساكنها يأمن الدهر، وهي تبدو كاللؤلؤة العظيمة الثاقبة الضوء، ولما زينتها النقوش، والتماثيل بدت كالزهر النّضر، يفوح المسك من نسيمها، ويقطر الذهب حوالِها، وهي تسر ساكنيها، وتلهيهم، فتغنيهم عن مجالس الغناء والخمر، وإذا فتحت شرفاتها تضيء طريق الحوت في البحر، والوحش في البراري. وهي للحياة الدنيا ريحانة، وللأخرى محراب يتعبد فيه.

هـ- وبنى الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت648/ 1250) في جزيرة الروضة قصوراً سماها الصالحية، زارها علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (ت1286/685) فراقته، ووصفها، فقال[47]:

تأملْ لحسنِ الصالحية إذْ بدتْ
وأبراجها مثلُ النّجـومِ تلالا
ووافى إليها النّيلُ من بعد غيبة
كما زار مشغوفٌ يروم وصالا
وعانَقها من فَرط شَوق محبها
فمـد يميناً نحـوها وشمـالا

يصف ابن سعيد قصور الصالحية، وأبراجها الحسنة بأنها: تبدو لمتأملها تتلألأ كأنها النّجوم، وشبه النيل وهو يحيط بها كأنّه عاشق يريد وصال معشوقة، فمد إليه يمينه وشماله ليحضنه بين ذراعيه.

4- وصف المنارات والمآذن

أشهر المنارات في العالم الإسلامي، منارة الإسكندرية، وقد ذكر في بنائها روايات عدة[48]، وقال ابن جبير: إنّها من أعظم ما شاهده في الإسكندرية، يهتدي بها من في البحر إلى البر، تظهر على نحو عشرين ميلاً، وفي رواية على أزيد من سبعين ميلاً، وقد ذرع أحد جوانبها فكان نيفاً وخمسين باعاً، وطوله 150 قامة[49]. أما ياقوت الحموي فقال: إن طولها مائتان وثلاثون ذراعاً[50].

وقد أعجب بها كثير من الشّعراء، فوصفوها، ومن ذلك:

أ- بات ظافر بن القاسم المعروف بالحداد، على موضع مطلّ على البحر، وكانت النار مشتعلة على أحد أركان المنارة، ليهتدي بها المسافرون، وكان ثلثا البدر ظاهرين، فطُلب منه وصف ذلك، فقال:[51]

وليلة من حسانِ الدهرِ بت بها
بساحل الثغْرِ في أعلى مناظره
وفي المنارة مـن تلقائنا قبس
والبدر يظهـر ثلثاه لناظـره
كشاربٍ قام إجلالاً وفي يـده
كأْسانِ للشربِ مسروراً بزائِره

فقد شبه المنارة وقبس النار فيها والبدر يظهر فوقها بشارب الخمر وقف إجلالا لزائره، وهو يحمل كأسين إكراماً له، وترحيباً به.

ب- وكان ابن قلاقس، نصر ا بن عبد ا ، وصديقه ابن الذّروي قد صعدا منارة الإسكندرية، فاقترح الأول على صديقه أن يصفها فقال ابن الذّروي[52]:

وسامية الأرجاء تهدي أخا السرى
ضياء إذا ما حنْدس اللّيل أظْلما[53]
لبستُ بها برداً من الأنس ضافياً
فكـان بتذكـارِ الأحبة معلمـا
وقـد ظلّلتني من ذُراهـا بقبة
أُلاحظُ فيها من صحابي أَنْجمـا
تخيلتُ أن البحر تحتي غَمامةٌ
وأنّي قد خيمت في كبد السمـا

فمنارة الإسكندرية: عالية، يرشد ضوؤها من يسيرون بالليل شديد الظلمة، صعدها مع صديقه، وقد استظل بقبتها، ورأى أصحابه على الأرض فبدوا صغار الأحجام كأنّهم النجوم في السماء، وتخيل البحر تحته سحابة، وهو قد ضرب خيمته في وسط السماء. وقال ابن قلاقس من مقطعة يصفها[54]:

ومنزلٍ جـاوز الجـوزاء مرتقبـا
كأنمـا فيه للنسـرين أوكـار
راسي القَرار، وسامي الفرع في يده
للنـون[55]، والنّورِ أخبار وآثار

إنّها أعلى من الجوزاء، تطاول نجمى النسرين اللذين عشّشا فيها، وهي راسخة القاعدة، سامية القمة، أخباراً وآثاراً كثيرة.

وقال يصفها[56]:

وهيفـاء فيها إن تأملْـتَ أمرهـا
عجائب لا يبدي سوى الفكرِ سرها
تقـوم ولكـن ليس تنقُلُ رِجلَهـا
وترنو ولكن ليس تُطْبِقُ شَفْرهـا
إذا نظرتْ منها النّواظر دوحـةً
رأت بأعاليها من النّار نورهـا

إنّها كالفتاة دقيقة الخصر، لا تظهر عجائبها سوى بإمعان الفكر، وهي واقفة لا تتحرك، تنظر إلى الأفق نظرة دائمة، من ينظر إليها يجد أنها كالشجرة الكثيفة تشتعل في أعاليها النار. فتبعث نوراً يبهر الأبصار.

وكان ابن قلاقس كثير التّرحال، وركوب البحر، فتشوقَ العودة إلى وطنه الإسكندرية، وهو في البحر، وقال من قصيدة يصف منارتها[57]:

متى تنور آفاقَ المنارة لي
بكوكبٍ في ظلام اللّيل وقّاد

إنّه يتمنّى أن تلوح له من بعيد أنوار منارة الإسكندرية، التي شبهها بالكوكب المضيء في ظلام الليل.

وكان أبو عبد ا ، محمد بن أبي الحسن بن عبد ربه من شعراء القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في مركب يبحر إلى الإسكندرية، فهاج البحر حتى أشرف على الغرق، فلاح له ومن معه منار الإسكندرية، فطمع في السلامة، وقال يصف المنارة[58]:

ِ در منـارِ الإسكندريـة كـم
يسمو إليه على بعد من الحدق[59]
من شامخ الأنف في عرنينه شمم
كأنّه باهـتٌ في دارة الأُفق[60]
يكسر الموج منـه جانبي رجـلٍ
مشَمرِ الذيلَ لا ينْجو من الغَرق
لا يبرح الدهر من ورد على سفنٍ
ما بين مصطَبِحٍ منها ومغْتَبِق[61]
للمنشآت الجـواري عنْد رؤْيته
كموقع النوم من أَجفْانٍ ذي أرق
تَهـوي إليه وعنْه الفُلْك طائـرةٌ
بمثل أجنحة صيغَتْ من الخرق
كأنـه وعلَيـه الفُلـك حائمـةٌ
برج الحمامِ، فَمن آت ومنْطلق

منارة الإسكندرية محطّ آمال من في البحر، فعيونهم تحدق في الأفق أملاً في رؤيتها، وحتى الرجال الأشداء يتطلّعون إليها بأمل، وهم يعملون ليلَ نهار في البحر، وإذا ما رأوها فإنّهم يسرون بها، سرور الأرق بالنّوم، وهو والمنارة بالنسبة للسفن في البحر والميناء، كبرج الحمام لطيور الحمام تتخذْه مركزاً لها.

وبنى المنصور قلاوون الصالحي سنة 1285/684 أبنية عدة، منها قبة لها مئذنة عالية، فوصفها البوصيري وصفاً جميلاً في قصيدة طويلة، منها في وصف المئذنة، قوله[62]:

فمئذنةٌ في الجو تُشْرقُ في الدجى
عليها هدى للعـالمين ونُـور
ومن حيثُما وجهتَ وجهك نحوها
تلقتْك منْهـا نضرةٌ وسرور[63]
يمد إليها الحاسد الطّرفَ حسرةً
فيرجع عنْها الطرفُ وهو حسير[64]
فكم حسدتْها في العلو كواكـب
وغارتْ عليها في الكمال بدور
إذا قام يدعـو ا َ فيها مـؤَذن
فمـا هـو إلاّ للنجـومِ سميـر
فللنّاس مـن تذْكـاره وأذانـه
فطُور على رجع الصدى وسحور

نور المئذنة يشرق في ظلام الليل، فيهدي الناس، وينير لهم الطريق، ويبعث البهجة والسرور في نفس من ينظر إليها، وتحسدها على علوها الكواكب، وعلى كمال حسنها البدر، وعندما يصعد إليها المؤذن يصبح نديما للنجوم، وبصوته يفطرون، وبصداه يتسحرون، وذلك كناية عن شدة علوها، ولذلك فإن الناس في رمضان يحددون موعد إفطارهم، وسحورهم من تذاكير المؤذن وأذانه.

5- وصف الحمامات

انتشرت الحمامات بكثرة في فترة الدراسة، حتى إن ابن جبير (ت1217/614) ذكر في رحلته التي قام بها إلى المشرق الإسلامي في الربع الأخير من القرن السادس الهجري أن حمامات بغداد لا تحصى، وأن أحد شيوخ بغداد ذكر له أن بين شطري بغداد الشرقي والغربي نحو ألفي حمام، وأن أكثرها كان مطْلياً بالقار، ومسطّحة بحيث يخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل[65]. وكان في دمشق، وأرباضها ما يقرب من مائة حمام[66]. كما كان في مصر الفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً في العهد الفاطمي[67].

جراء ذلك فقد أكثر الشعراء في فترة الدراسة من وصف الحمامات، فذكروا في أوصافهم عدداً من الصفات التي كانوا يحبذون وجودها في الحمامات التي يرتادونها، وممن وصفها من الشعراء:

أ- قال أحمد بن محمد البغدادي (ت1124/518) من مقطّعة يصف فيها حمام صديقه[68]:

ودخلتُ جنّتَه وزرتُ جحيمَـه
فشكرتُ رضواناً، ورأفةَ مالكِ

الحمام له نعيم كالجنّة التي يخدمها رضوان عليه السلام، ودفء وحرارة تنبعث من الماء كالجحيم الذي يخدمه مالك عليه السلام، لكنّه كان رؤوفا به.

ب- وأكثر ظافر الحداد من وصف الحمامات، قال[69]:

يا رعـى ا ُ مبدع الحمـامِ
فلقد فاقَ حكمـةً في الأنـامِ

روضةُ العينِ لذّةُ العقل والحـ
ـسنِ جلاء القُلوبِ والأجسامِ

لو توقّى امرؤٌ بشيء من المو
ت لكانت أحرى بدفْع الحمامِ

إن من أبدع الحمام كان حكيماً؛ فأثره على صحة الإنسان، وصفائه النّفسي، والبدني كبير، حتى جعله الأولى بدفع الموت عن الإنسان لو كان هناك ما يدفعه عنه.

وقال من قصيدة يصف حمام الكافوري بالإسكندرية، وكتبت على جدرانه[70]:

صحـ ـةٌ في سلامـة ونعيـمِ
وبقـاء في عـز ملْـك مقيـمِ

طاب هذا الحمام واجتمع الحسـ
ـسن إليـه في جملـة التّقسيمِ

فهو مثلُ العروسِ تُجلى على الأبـ
ـصارِ زهواً في حلّة من رقيمِ

فيـه حسـن باد وحسـن خَفـي
ليس يبـدو إلاّ بغيـرِ رجـومِ

وشمـوس قـد جاورتْهـا بدور
ونجـوم لكـن بغيـرِ رجـومِ

وسيـولٌ تفيض بالحـارِ والبـا
رد لكنهـا بغيـرِ غُيـومِ

بخـار كأنّـه نكهـةٌ المعـ
شوق في أنف عاشق محـرومِ

وطيور تكـاد تشـدو ووحـشٌ
رتـع في فواكـه وكُـرومِ

وقيـانٍ تكـاد تُفْصـح بالايقـ
ـاع بين الثّقيـل والمزمـومِ

وحياض راقتْ ورقّـتْ فأبدتْ
كل سر في ضمنهـا مكتـومِ

هنا يجعل ظافر الحداد الحمام مكاناً للصحة، والحياة الملوكية؛ لطيبه، وحسن تخطيطه، ثم يجعله كالعروس ليلة جلوتها، مقرراً أن حسنه لا يعرفه إلاّ الخبير العالم بالحمامات. ورواد هذا الحمام مثل الشموس، والبدور، والنجوم لكن من غير أذى يلحق بهم، ومياهه الباردة والحارة تتدفّق كالسيول، تملؤه رائحة البخار الذكية. ثم يصف الصور التي زينت جدران بعض حجرات الحمام ومنها: الطيور التي تكاد تغرد لدقّة رسمها، والظباء وبقر الوحش، وغيرها من الحيوانات الجميلة الرائعة في المراعي، والمغنّيات الجميلات اللواتي يكدن يشدون بأنواع الغناء لحسن رسمهن، والبساتين الخضراء المزهرة النّضرة.

ج- ووصف محمد بن علي الموصلي من شعراء القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حماماً، فقال[71]:

ضدانِ في حمامكُم هذه
سكانُها بينَهما قَد شقُـوا

كأنهـا قلْبي في حـره
وماءها قلب الذي أَعشَقُ

هنا يجعل الشاعر سكان الحمام قسمين: قسم يستحم في

المياه الحارة مثل قلبه، وقسم يستحم في المياه الباردة مثل قلب معشوقه.

د- وقال حسان بن نمير الكلبي، المعروف بعرقلة الدمشقي (ت 1171/567) يصف حماماً عمرها الملك الناصر صلاح الدين بمصر، وكتبت عليه[72]:

يا داخلَ الحمامِ هنّيتَها
دائرةً كالفلـك الدائرِ
تأمل الجنّةَ قد زخرِفَتْ
وعمرتْ للملك النّاصرِ
كأنّما فيض أنابيبهـا
نداه للوارد والصادرِ

هنا يصف الحمام بأنها لا تتوقف عن الحركة فكأنّها الفلك، وهي في زخارفها وزينتها تشبه الجنّة، أما الماء المتدفق من أنابيبها فهو يشبه جود الملك الناصر على من يفد إليه.

6- وصف المشافي

على الرغم من انتشار المشافي في المدن الإسلامية في فترة الدراسة، واهتمام السلاطين والحكام بإنشائها، ووقفهم الأوقاف عليها، إلاّ أن ما قاله الشّعراء في وصفها قليل، إذ لم أعثر إلاّ على نصين شعريين اثنين في وصف المشافي، ففي سنة 684/ 1285 أنشأ المنصور قلاوون الصالحي مارستانا سمي المارستان المنصوري الكبير[73]، وقد وصفه البوصيري في قصيدة مع المدرسة والقبة التي بناهما في الموقع نفسه، ومدح فيها الملك المنصور، ومما قاله في وصفه:[74]

وقبـةُ مارستان ليس لعلّـة
عليه وإن طال الزمان مرور
صحيح هواء للنفوسِ بنشْرِه
معاد وللعظْمِ الرميمِ نُشور[75]
يهب فيهدي كل روحٍ بجسمه
كأن صباه حين ينفُخُ صور[76]
فلو تعلم الأجسام أن ترابـَه
مهاد حياة للجسـومِ وثيـر
لَسارتْ بمرضاها إليه أسرةٌ
وصارتْ بموتاها إليه قبـور
وما عاد يبلي بعد ذلك ميتـاً
ضريح ولا يشكُو المريض سرير

إنّه يصفه بصفات صحية: فهواؤه العليل يحيي النفوس الميتة، ودواؤه يصحح الأجسام المريضة، حتى إن القبور لم تعد تبلي العظام، والمرضى لم تعد تشكو الجلوس على الأسرة.

ووصف ابن خروف، علي بن محمد القرطبي (ت1207/604) البيمارستان، عندما كان يعمل في بيمارستان بدمشق، وكان لهذا البيمارستان بواباً يدعى السيد، وقد جاء وصفه تهكمياً، وفيه نوع من الدعابة المقبولة، والرقيقة المضحكة:[77]

مولاي مولاي أَجِـرني فقـد
أمسيتُ في دارِ الأسى والحتوفْ
وكيفَ لي صبر على منْزِلٍ
بوابه السيد وجـدي خَـروفْ

فهو يستجير بمولاه ليحميه مما هو فيه، إذ أمسى في دار الأحزان والأموات، ولا يستطيع الصبر على الإقامة في هذه الدار، وبخاصة أن بوابها السيد (المتحكّم في كل أمر)، وهو ابن خروف، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى العلاقة بين كبار القوم والخرفان.

7- وصف الإهرامات

أثارت إهرامات مصر مشاعر متنوعة في نفوس الشّعراء الذين زاروها، فمنهم من وقف موقف المعجب بعظمتها، ومن وقف موقف المتّعظ والمعتبر من خلودها على مر العصور، وقد وصفها عدد من الشعراء بأوصاف مختلفة، وممن وصفها:

أ- أبو الصلت، أمية بن عبد العزيز (ت1135/529)، خرج في جماعة من الشّعراء في نزهة إلى الإهرامات ليروا عجائبها، فقال فيها:[78]

بعيشك هلْ أبصرتَ أعجب منْظـراً
على ما رأتْ عيناك من هرمي مصرِ
أَنافـا بأكْنـافِ السمـاء وأشْرفـا
على الجو إشرافَ السماك على النسرِ
وقد وافيا نشْزاً مـن الأرض عاليـاً
كأنّهمـا نهـدانِ قامـا على صـدرِ

الهرمان اللّذان رآهما أبو الصلت هما أعجب ما رآه في حياته، إذ هما يشبهان نجم السماك في علوهما، وهما في الأرض كالنهدين على الصدر في ظهورهما وبروزهما.

ب- وقال فيها ظافر بن القاسم الحداد:[79]

تأملْ هيئَةَ الهرمينِ وانظُر
وبينَهما أبو الهول العجيب
كعماريتين[80] على رحيلٍ
بمحبـوبين بينهمـا رقيب
ومـاء النّيل تحتَهما دمـوع
وصوتُ الريح عندهما نحيب

هنا يدعو الشاعر القارئ إلى تأمل صورة حزينة أبدع في رسمها، وتزيينها، إنّها صورة الهرمين في مصر، يقف بينهما تمثال أبي الهول، ويمر قربهما ماء النيل بما يحدثه جريانه من أصوات، وتمر بينهما الريح بما تُحدثه من صفير، هذه الصورة التي تشبه صورة محبوبين في هودجين هرميي الشكل، فيهما محبان، وهما على وشك الرحيل، ويقف بينهما رقيب يمنعهما من اللقاء، فتفيض دموعهما، ويرتفع صوت نحيبهما.

ج- وقال عمارة اليمني (ت 569/1173) يصفها:[81]

خليلي ما تحتَ السماء بنيـة
تُماثِلُ في اتقانها هـرمي مصـرِ
بناء يخافُ الدهر منْه وكُل ما
على ظاهرِ الدنيا يخافُ من الدهرِ
تنزه طرفي في بديع بنائِهـا
ولم يتنزه في المراد بهـا فكْـري

يعلن عمارة هنا إعجابه الكامل بإهرامات مصر، وأنه لا مثيل لها تحت السماء، ويؤكد ما قاله بعض الفضلاء فيها وهو: "كل بناء أخافُ عليه من الدهر إلاّ هذا البناء فإنّي أخافُ على الدهرِ منه"[82]. فشعوره بخلودها قوي إلى درجة جعلته يقول بأن الدهر يخشاها، ويخافها. ثم يعلن عجزه عن فهم أسرارها، والهدف من بنائها.

ثانياً- الدراسة الفنية

درست شعر وصف مظاهر العمران دراسة فنّية من خلال دراسة الأسلوب واللغة، والصورة الشعرية، على النحو الآتي:

1- الأسلوب واللّغة

تبين لي من خلال استعراض النّصوص الشّعرية التي درستها في وصف مظاهر العمران في فترة الدراسة، أن الشّعراء الذين وصفوا المظاهر العمرانية، قالوا شعرهم في أغلب الأوقات متأثّرين بالمناسبة التي قالوا فيها وصفهم، وأنّهم رموا من وصفهم تنبيه المتلقّين إلى حقيقة ما يصفونه، ليثيروا فيهم الإعجاب، أو التقدير، أو الحرص، أو لتحفيزهم على أخذ العظة والعبرة مما يصفونه.

وقد جاء وصفهم في أغلبه في مقطّعات شعرية يسهل حفظها وتداولها بين النّاس، وأن تلك المقطّعات كانت جراء حدث انفعالي أو تأثّري واحد، فبنيت فيه، وحملت معنى واحداً واضحاً، وأن بعضها جاءت بدايته على صيغة الأحجية، أو اللّغز، أو المعمى، وبخاصة في بدايتها[83]. أما ما جاء في قصائد، فإن ما قيل في وصف مظاهر العمران من تلك القصائد وضع في كتلة واحدة، فجاء كأنّما هو مقطّعة في القصيدة[84]، يحكي معنى محدداً وواضحاً.

وقد استخدم الشعراء عدداً من الوسائل الأسلوبية في بناء وصفهم لمظاهر العمران، وذلك لكي يضمنوا لوصفهم الذّيوع والانتشار بين المتلقّين، وسرعة التأثير. وأهم الوسائل الأسلوبية التي استخدموها هي:

أ- تفضيل الألفاظ السهلة، والتراكيب الواضحة والشائعة، التي تؤدي المعنى بيسر، وتحقّق التأثير اللازم في المتلقّين. كما في أبيات عرقلة الكلبي التي قالها في وصف المدرسة النّورية الكبرى بدمشق، قال:[85]

ومدرسة سيدرس كل شيء
وتبقى في حمى علْم ونُسك
تضوع ذكرها شرقاً وغرباً
بنور الدين محمود بن زنكي
يقولُ وقوله حـق وصـدقٌ
بغيـرِ كنايـة وبغيـرِ شـك
دمشـقُ في المدائن بيتُ ملكي
وهذي في المدارس بيتُ مُلْكي

فالأبيات تكاد تكون كلاماً عادياً مما يتداوله النّاس فيما بينهم في مثل هذا الموقف الوصفي.

وفي الحقيقة وجدت أن أكثر الشعراء الذين درست بعض شعرهم في وصف مظاهر العمران نزلوا في صياغاتهم الشّعرية إلى مستوى المتلقّين، ما أكسبها طبيعة الحياة اليومية، فأخذوا من أفواه عامة الناس، بعض الألفاظ والتراكيب، واستخدموها في شعرهم مثل: (فتى يحلّ المشكلات)، و(وأئمة تلقي الدروس)، و(سادة تشفي النّفوس)، و(خرجت لترتيب البناء)، و(ألا هكذا يبني المدارس)، و(تجمع فيها كل حسن مفرق)، و(مدينة علم والمدارس حولها قرى)، و(يتلى القرآن به في كل ناحية)، و(ما أحسن الجامع في ليلة النصف)، و(لما رأى الجامع أمواله)، و(تسر وتلهي ساكنها)، و(مد يمينا نحوها وشمالا)، و(تخيلت أن البحر تحتي غمامة)، و(إذا قام يدعو ا فيها مؤذن)، و(يا رعى ا)[86].

وحاول بعض الشعراء الاقتراب أكثر من الكلام الذي يتداوله النّاس في حياتهم العامة، فلجأوا في بعض مقطّعاتهم إلى تعطيل قواعد الإعراب في تراكيبهم الشّعرية، حيث استخدموا الكلمات التي لا تظهر على أواخرها علامات

الإعراب، أو سكّنوا المتحرك، كما في مقطعة ابن عنين التي وصف فيها جامع التوبة، فشخّصه وأنطقه، حيث قيد قافيتها لتنطق الكلمات كما تلفظها العامة:(87)

جامـع التوبـة قـد
حملني منْـه أمانَـه
قال: قُلْ للملك الأشـ
ـرف أعلا ا ُ شانَه
لي إمـام واسطـي
يعشَقُ الخمر ديانَـه
والّذي قد كان مـن
قبل يغَنّي بالجِفانَـه
فكما كنتُ وما زِلْـ
ـتُ ولا أبرح حانَه
فأعدني النّمـطَ الأو
لَـ واستَبِقْ ضمانَه

فالكلمات: أمانه، وشانه، وديانه، والجفانَه، وحانه، وضمانَه، تلفظ كما تلفظها العامة حتي في وقتنا الحاضر.

واستخدام ابن النبيه المصري في وصف مدرسة عمرها علم الدين بن الملك الكامل الأيوبي كلمات لا تظهر على أواخرها علامات الإعراب، وكذلك فعل أبو الحسين الجزار في وصف المدرسة الظاهرية.(88)

واستخدم عدد من الشعراء وسائل تعبيرية توجد صلة وجدانية ولسانية بين شعرهم الوصفي، ومتلقّي هذا الشعر، ومن تلك الوسائل التي استخدمها عدد من الشعراء: أسلوب الخطاب، وهو أُسلوب من طبيعته استحضار المتلقّي، وبناء جو تفاعلي معه، وإنتاج معان مقصودة فيه. وقد أكثر الشعراء الذين وصفوا مظاهر العمران من استخدام هذا الأسلوب بأشكال متعددة، ومن ذلك: (خرجت لترتيب البناء)، و(ولا تذكرن)، و(ألم تر)، و(إن تأملته)، و(تأملْ لحسن الصالحية)، و(ومن حيثُما وجهتَ وجهك)، و(ضدان في حمامكم هذه).(89)

كما استخدم بعض الشعراء أساليب النداء والخطاب، والاستفهام والحوار في مقطعة واحدة، مما أكسبها تنوعاً في الأساليب، وأضفى عليها قدراً مهماً من الحيوية، وذلك على الرغم من قصرها. ومثلها قول ابن النبيه المصري:(90)

أيا منعماً شُكْرِي لَه الواجب الأولى
ويا مخْلصاً ـِ في السر والنّجوى
خرجتَ لترتيبِ البناء فلَو رأى
سليمان ما شيدتَه قال: لا أقوى
فكم بنيتْ من قبلها من مدارسٍ
ولكنّهم ما أسسوها على التّقوى

كما استخدم بعض الشعراء أسلوب العرض مما يوحي بحضور المتلقّي أمام الشاعر، فيأخذ بعرض قطعته أو قصيدته عليه(91).

ولما كان شعر وصف العمران يعبر عن موقف الشاعر المعجب، والمفاخر، والمفضل لموصوفه على غيره مما عرف في التاريخ بدقّة البناء، وفخامته؛ لذلك فإن بعض الشعراء أقاموا نوعاً من المقابلة، بحيث رصدت تلك المقابلات المفارقات بين الموصوف والتاريخي، ومن ذلك قول ابن النبيه المصري:(92)

خرجتَ لترتيبِ البناء فلَو رأى
سليمان ما شيدتَه قال: لا أقوى
فكم بنيتْ من قبلها من مدارسٍ
ولكنهم ما أسسوها على التّقوى

فسليمان عليه السلام، الذي يشهد له بدقّة البناء يعترف إن رأى المدرسة أنه لا يستطيع بناء مثلها، كما أنها تتفوق على ما بني قبلها من مدارس بأنّها أُسست على التّقوى.

ومنه قول السراج الوراق في وصف المدرسة الظاهرية:(93)

فشيدها للعلْم مدرسةً غَـدا
عـراقٌ إليها شيـقٌ وشـآم
ولا تذكرن يوماً نظاميةً لَها
فليس يضاهي ذا النظام نظام

فالعراق والشام -على كثرة ما فيهما من مدارس - يشتاقان لأن يكون فيهما مثلها، والنّظامية مضرب المثل في المدارس لا تضاهيها.

وكذلك فعل البوصيري قي وصف المدرسة المنصورية بمصر، وابن قلاقس في وصف قصر علي بن عبد الوهاب بن خليف بالإسكندرية، وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز في وصف هرمي مصر.(94)

وأكثر بعض الشعراء الذين وصفوا مظاهر العمران من استخدام الألفاظ الخاصة بالبناء ومتعلّقاته من مثل: شكل البناء، والصخور، والحيطان، والقباب، وشيدها، ومحراب، وهندس، وأركان، ونقوش، وتماثيل، وأبواب، ومشترفات، ومحراب، وأبراج، وغيرها. وأكثروا أيضاً من استخدام كلمات الإعجاب والتفضيل من مثل: تروق، والمحاسن، وجنّة الخلد، وخير المدارس، وود، وسامية، وزين، وتغري،

وتنافس، وأشرق، وأورق، وغيرها. وهذه الألفاظ وغيرها تكاد لا تخلو منها أبيات وصفية من الأبيات موضع الدراسة.

وقد أكثر الشعراء الذين قالوا في وصف المظاهر العمرانية من استخدام ألوان البديع المختلفة، وذلك بما يحقّق الهدف الذي كانوا يسعون إليه في وصفهم، وهو إظهار الموصوف بأجمل صورة ممكنة، وتفضيله على أقرانه السابقة، فابن منقذ الكناني قسم الموظفين في مدارس دمشق، وطلبة العلم بحيث لم يبق أحد خارج القسمة، قال:[95]

وأئمة تلقـي الدروس، وسـادةٌ
تُشْفي النّفوس، وداؤها قد أَعضلا

ومعاشر تَخذُوا الصنائع مكْسبـاً
وأفاضلٌ حفظوا العلوم تجمـلا

كما أحسن تقسيم البيت الأول إلى ثلاث فقرات متساوية، والبيت الثاني قابل فيه مقابلة جميلة بين ألفاظ الصدر والعجز.

وما أجمل التزيين والتنغيم الذي أضفاه الطباق، وتكرار بعض الألفاظ في بيتي الرازي الّلذين قالهما في وصف المدرسة المستنصرية، وبين فيهما أثرها على الحياة العلمية في بغداد:[96]

فأشْرقَ وجه الدين والدين شاحـب
وأورقَ روض الشّرع والروض ذابلُ

وجدد رسم العلـم والعلـم دارس
وزين جيد الفضل والفضـلُ عاطـلُ

ونثر الشعراء، الذين وصفوا المظاهر العمرانية موضع الدراسة، كثيراً من الطباق في أشعارهم ما زاد من تزيين المباني الموصوفة وتجميلها، ومن غير أن يؤدي ذلك إلى إخلال بالمعاني التي سكبوها في تلك الألفاظ، ومنها: شرق: غرب، ويمين: شمال، ونون البحر: الوحش في البر، والأخرى: الدنيا، ومصطبح: مغتبق، وآت: منطلق وغيرها كثير.[97]

واستخدم بعض الشعراء أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذّم في تزيين ما وصفوه من مظاهر العمران كما في قول ابن قلاقس في وصف منارة الإسكندرية:[98]

تقـوم ولكـن ليس تنقـلُ رجلَهـا
وترنو ولكـن ليس تطبـقُ شَفْرهـا

ومثله فعل ظافر الحداد في وصف حمام الكافوري.[99]

واستخدم عدد من الشعراء التتميم المعنوي لتزيين ما وصفوه من مظاهر عمرانية، كما فعل أبو الحسين الجزار في وصف المدرسة الظاهرية بالقاهرة، إذ ببنائها بلغ ما تمنّاه في الدارين، والمدرسة جمعت كل حسن مفرق، ونفسه النفيسة.[100]

ب- الصورة الفنية

استخدم الشعراء الذين درست شعرهم في وصف مظاهر العمران في القرنين السادس والسابع الهجريين، التّصوير البياني في نقل معانيهم، والتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم فيما وصفوه من: مدارس، ومساجد، وقصور، ومنارات ومآذن، وحمامات، ومشاف، وإهرامات، واستقى هؤلاء الشّعراء صورهم من الأماكن التي وصفوها ومتعلّقاتها من مثل: شكل البناء، والصخور، والزركشة والنقوش فيه، والجدران أو الحيطان، والقناديل، والقباب، والارتفاع، والأزهار، والرياض، واللؤلؤ، وغيرها مما يمكن أن يزيد من جمال الموصوف. وكان الهدف الذي سعى إليه هؤلاء الشّعراء من وراء رسمهم للصور التي شكّلوها في شعرهم هو تزيين الموصوف، والترويج له، وإثارة الإعجاب له، والفخر على ما يشبهه من مظاهر العمران التي يضرب بها المثل في الإتقان، والحسن، والجمال، ودقّة الصنعة.

ومن خلال استعراضي للنّصوص الشعرية موضع الدراسة، وجدت أن الغالبية العظمى من الصور التي رسمها الشعراء قامت على التشبيه المفرد، والتمثيلي، والبليغ، ومن أمثله ذلك، ما قاله السراج الوراق في تصوير المدرسة الظاهرية:[101]

وقد برزتْ كالروض في الحسن أنبأتْ
بـأن يديـه فـي النّـوال غمـام

ألم تـر محـراباً كـأن أزاهـراً
تفتّـح عنْهـن الغَـداةُ كمـام

فحسن المدرسة يشبه الروض النّضر، وعطاؤه للعاملين فيها يشبه غيث السحاب للروض، ومحرابها منير بحلقات الدرس كالزهور التي تفتحت عنها كمامها (أغطيتها) حديثاً. وقول البوصيري في وصف المدرسة المنصورية:[102]

بناء كأن النّحل هندس شكْلَـه
ولانت له كالشمع منْه صخور

فقد شبه حسن شكل المدرسة بخلية النّحل، وشبه الصخور التي بنيت منها المدرسة بذلك البناء الجميل في لينها، بالشمع الذي يبني منه النّحل خلاياه. ومنه قول علي السروجي في وصف جامع بني أُمية:[103]

كأن حيطانه زهر الربيـع فمـا
يمله الطّرفُ فهو الدهر منظور

فقد شبه حيطان الجامع الأموي وما عليها من نقوش جميلة متنوعة بزهر فصل الربيع. وهناك تشابيه مفردة كثيرة، فقد شبه نور قناديل الجامع الأموي بكاسات الخمر وهي تدار على النّدامى، وشبهت أنوار أبراج الصالحية بأنوار النّجوم في تلألئها، وإقبال النيل عليها بالمحب المشتاق يريد وصال محبوبته. وشبه رائحة بخار الحمام برائحة المعشوق الذكية، وشبه ماء الحمام الساخن بقلب الشاعر العاشق، وماءه البارد بقلب معشوقة الشاعر. وغيرها كثير.(104)

ومن الصور التي بنيت على التشبيه التمثيلي في شعر وصف مظاهر العمران، قول ابن قزل في وصف الجامع الأموي ليلة النّصف من شعبان:(105)

لم أنْس بالجامع المعمور حين بدتْ
فيه القناديلُ في نـورٍ وأضـواء

كأنهـا وعيون الشمـسِ ترمقُـها
لمع الكواكبِ في صاف من الماء

ومنه قوله ابن الدّروي في وصف جامع مصر:(106)

أيا حسن جامع مصرٍ وقد
تروى من الوابل المغْدق

وضوء القناديل من فوقه
كأسطُرِ تبرٍ على مهرق

فقد شبه صورة ضوء القناديل تسقط على جامع مصر الأبيض المبلل بالمطر بصورة سطور الذّهب التي كتبت في صحيفة بيضاء. وهناك تشابيه عديدة في الشعر موضع الدراسة، وكلّها أسهمت في تحقيق الهدف من وصف مظاهر العمران، وهو تزيين الموصوف والترويج له، ومنها: تشبيه صورة منارة الإسكندرية، والضوء المنبعث من البدر الذي يبدو مرتفعاً فوقها فيظهر ثلثاه فقط، بصورة شارب الخمر واقفاً يستقبل زواره وفي يده كأسان يشعان ويلمعان.

وصورة منارة الإسكندرية والسفن تحوم حولها ما بين راسية، ومغادرة بصورة برج الحمام الذي يتّخذه الحمام مستقراً له، ومنطلقاً(107). ومن الصور التي بنيتْ على التشبيه البليغ، قول ابن قزل في جامع بني أمية:(108)

فجامعـها إن تأمـلْتَـه
فقَصر من اللؤلؤ المنْتَخب

ومنه قول ابن عنين في وصف الجامع الأموي:(109)

القرد في شُباكه حاكـم
والتّيس في قُبة محرابـه

فقد جعل خطيب الجامع قرداً، وقاضي القضاة تيساً. ولجأ عدد من الشعراء إلى رسم صور غاية في الدقة والحيوية للوصول إلى ما يريدون من الترويج للمظاهر العمرانية التي وصفوها، ومنها قول ابن سعيد المغربي يصف قصور الصالحية بالقاهرة:(110)

تأملْ لحسن الصالحية إذْ بدتْ
وأبراجـها مثلُ النّجـوم تلالا

ووافى إليها النّيل من بعد غيبة
كما زار مشْغوفٌ يروم وِصالا

وعانَقها من فَرط شَوق محبها
فمـد يميناً نحوهـا وشمـالا

إنه يرسم صورة نابضة بالحياة للصالحية تلألأ أنوار أبراجها كما تلألأ أنوار النّجوم، ثم يأتي إليها النّيل ولشدة شوقه إليها يحتضنها ويضمها كأنّه العاشق يضم معشوقه بين يديه. ومنها قول ظافر الحداد يصف حماماً بالإسكندرية:(111)

وطيور تكاد تشدو ووحـشٌ
رتّـع في فواكـه وكُـروم

وقيانٍ تكـاد تفصح بالايقـ
ـاع بين الثّقيل والمزمـوم

وحياض راقتْ ورقّتْ فأبدتْ
كل سر في ضمنها مكتـوم

هنا يصف ظافر الحداد لوحة منقوشة على جدار الحمام، وقد أضفت كلمة "تكاد" على اللوحة نوعاً من السحر الخاص المستوحى من معناها الديني حين استخدمها الله تعالى في قوله تعالى: **يكادُ زيتُها يُضيءُ ولو لم تَمسسهُ نَار** (112). في هذه اللوحة طيور لدقّة رسمها تكاد تغرد، وغزلان ترعى في بساتين الفواكه والكروم، ومغنّيات يكاد الناظر والمصغي إليهن يسمع أصوات عزفهن المتنوع ونغماتهن، وبساتين نضرة تروق العين التي تنظرها بما تبديه لها من أسرارها العجيبة، إنّها لوحة فنّية رائعة، لو قدر لفنان تشكيلي أن يرسمها، لراقت لكثير من متذوقي الفن الحديث.

وشخّص بعض الشعراء بعض المظاهر العمرانية التي وصفوها، وأضفوا عليها طابع الإنسان، فابن عنين بثّ الحياة في الجامع الأموي، فبدا إنساناً عاقلاً يبصر ما يقوم به القائمان عليه، الخطيب والقاضي، فيستهجن ذلك، ويكاد يصاب بالجنون لما يقومان به من أكل أمواله، ولذلك أمر الملك المعظم عيسى بسلسلة أبوابه. وهذه صور طريفة جميلة، وساخرة. قال:(113)

لما رأى الجامع أمواله
مأكولةً ما بين نوابـه

جن من خوف عليه غدا
مسلسلاً من كُل أبوابه
وكيفَ لا تعتاده جِنــةٌ
وقد رأى المسخَ لأربابه
القرد في شُباكه حاكــم
والتّيس في قبة محرابه

وفي مقطعة ثانية شخّص جامع التوبة فجعله يحمل ابن عنين أمانة هي عبارة عن شكواه ضد إمامه الواسطي، الذي حوله إلى حانة كما كان عليه قبل أن يبنيه الملك الأشرف. وابن سعيد المغربي جعل النيل عاشقاً يسير إلى معشوقته الصالحية، ويضمها بين ذراعيه.[114]

وقد أكثر عدد من الشعراء، موضع الدراسة من استخدام الصور الدينية، وذلك لما تثيره في النّفس من الاطمئنان، والخشوع، والإعجاب، فالمدرسة التي بناها علم الدين الأيوبي ُأسست على التّقوى، وكذاك دار الملك الأشرف موسى الأيوبي في خلاط، والمدرسة المنصورية التي بناها الملك المنصور قلاوون لها عرش يحمل على ثمانية عمد، ومن بناها كان قديراً على ما لم يستطعه غيره من الملوك[115]. كما نثروا في أشعارهم كثيراً من الألفاظ والمعاني القرآنية والدينية، ما زاد من قيم الإطمئنان والإعجاب في نفوس المتلقّين، ومن تلك الألفاظ: بيعة، والدين، والقرآن، والتفاسير، والنصف من شعبان، وا ، والجامع، وقبة، والمحراب، وإمام.[116]

وكثيراً ما التفت الشعراء الذين وصفوا المظاهر العمرانية إلى المظاهر العمارنية التاريخية، وذلك في محاولة منهم لإضفاء معاني القوة، والاقتدار، والتفوق على المظاهر التي وصفوها، وأنّها تتفوق على كثير من المظاهر المعروفة في التاريخ ومن ذلك: المدرسة النظامية، والخورنق، والسدير، والمدرسة الظاهرية، وقصور الروم، وغيرها[117]. ومن ذلك قول ابن قلاقس يستذكر الخورنق والسدير، وقصور الروم عندما وصف في إحدى قصائده قصر علي بن عبد الوهاب:[118]

خفَض الخورنَقُ والسدير سمــوه
وثنى قصور الروم ذات قُصورِ

الخاتمــة

وبعد، فقد تم فيما سبق دراسة بعض ما وجدته من شعر في وصف المظاهر العمرانية في القرنين السادس والسابع الهجريين، وتبين لي أن ما قاله الشعراء في هذا الموضوع كان شعراً كثيراً - إلى حد ما - وأنّه توزع على سبعة مظاهر أساسية، فيما هناك شعر كثير أيضاً في وصف القلاع والحصون، وما يتعلّق بها من أنظمة بناء، فضلاً عن النّوافير، وبرك المياه، والنواعير وغيرها مما كان يوضع في المتنزهات، والقصور، والحقول الزراعية. وهذه أخرجتها من الدراسة لعدم الإطالة، ولأنّها تستحق دراسة منفصلة.

وقد حاول الشعراء في وصف المظاهر العمرانية إظهارها بمظاهر التفوق على مثيلاتها في العصور السابقة، واعتبارها مفخرة لمن بنوها، كما حاولوا بيان دورها في المجتمع، وتمنّوا لها البقاء على مدى الدهر، وفي بعض المظاهر وبخاصة المنارات، والمآذن، والإهرامات، حاولوا بث العبر والعظات لمن يشاهدونها.

أما الصور التي رسمها غالبية الشعراء فقد جاءت صوراً واضحة تشفّ بوضوح عن المعاني المراد توصيلها للمتلقّين، وهي صور مستوحاة من المكان الموصوف ومتعلّقاته. ومعظم الأشعار جاءت في مقطوعات قصار، ذات ألفاظ سهلة، وتراكيب شائعة. وقد وظّف كثير من الشعراء الطاقات الشكلية للّغة من طباق، وتقسيم، وتتميم، ومقابلة، وتأكيد المدح بما يشبه الذّم، وغيرها من ألوان البديع.

الهوامــش

(1) القيرواني، العمدة، 1059/2.
(2) انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، 436/3-437.
(3) انظر: ابن جبير، تذكرة بالأخبار، ص46.
(4) انظر: المصدر نفسه، ص51-53.
(5) انظر: المصدر نفسه، ص164.
(6) انظر: المصدر نفسه، ص168.
(7) المصدر نفسه، ص179.
(8) المصدر نفسه، ص198.
(9) انظر: كرد علي، خطط الشام، 68/6.
(10) المدرسة النورية الكبرى: أول دار حديث أنشأها نور الدين محمود زنكي سنة 1167/563، وقيل سنة 1171/567، وقيل بناها ابنه الصالح، وهي الآن مسجد جامع، وبها قبره يزار، ويتبرك به. تقع في سوق الخياطين. انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 606/1؛ كرد علي، خطط

الشام، 73/6-74؛ المنجد، صلاح الدين، خطط الشام، ص63.

(11) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 299/1؛ عرقلة الكلبي،، الديوان، ص70. وفيه أنه قالها في العادلية: وهي مدرسة أنشأها نور الدين محمود زنكي، وتوفي ولم تتم، ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين أبي بكر أخي صلاح الدين، ولم تتم، فتممها ولده المعظم، ودفن بها والده ونسبها إليه. وهي بناء مجمع اللغة العربية في حي باب البريد من دمشق. وقد رجحت أنّها في المدرسة النورية لأن الشاعر توفي قبل أن يكون للملك العادل شأن، كما أن أبا شامة المقدسي مؤلف "الروضتين" أقرب إلى عصر الشاعر من النعيمي مؤلف "الدارس" ونص صلاح الدين المنجد أن النورية بنيت سنة 567هـ. انظر: عرقلة الكلبي، الديوان، ص70؛ النعيمي، الدارس، 359/1؛ كرد علي، محمد، خطط الشام، 73/6-74؛ المنجد، صلاح الدين، خطط دمشق، ص63.

(12) كرد علي، خطط الشام، 69/6.

(13) ابن النبيه المصري، الديوان، ص427.

(14) في البيت اقتباس من قوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتَماثيلَ وجِفَانٍ كالْجوابِ، وقُدورٍ راسيات ، سبأ، 13/34. فقد روي أن الجن كانت تطيع سليمان عليه السلام، وتنفّذ أوامره، وتعمل له ما يشاء من ضخام المباني، والعمائر، والتماثيل، وغيرها من مظاهر العمران، وتجعلها بأبدع صورة ممكنة. انظر: النجار، قصص الأنبياء، ص332.

(15) التوبة، 108/9.

(16) ابن الشّعار، قلائد الجمان، م1ج357/1.

(17) المدرسة الظاهرية: بناها السلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة سنة 1263/662، من جملة خط بين القصرين، كان موضعها القصر الكبير، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، ولما انتهى منها عمل احتفالاً كبيراً حضره عدد من الشعراء الذين وصفوها، وأشادوا بها، وهي من أعظم المدارس بالقاهرة . انظر: المقريزي، المواعظ والإعتبار، 476/3.

(18) المصدر نفسه، 477/3.

(19) الشعراء، 90/26.

(20) المقريزي، المواعظ والإعتبار، 477/3-478.

(21) المصدر نفسه، 478/3.

(22) البوصيري، الديوان، ص152. والمدرسة المنصورية: تقع داخل باب المارستان المنصوري الكبير، بين القصرين بالقاهرة، أنشأها والقبة تجاهها، والمارستان الكبير الملك المنصور قلاوون الألفي، على يد علم الدين سنجر الشجاعي، ورتّب بها دروساً أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، ودرساً للطب. انظر: المقريزي، المواعظ والإعتبار، 480/3.

(23) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة سجد وجمع.

(24) انظر: كرد علي، خطط الشام، 45/6-46.

(25) النعيمي، الدارس، 416/2.

(26) ابن قزل، الديوان، ص185.

(27) انظر: سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص67-68.

(28) ابن قزل، الديوان، ص145.

(29) الكتبي، فوات الوفيات والذيل، 388/3.

(30) قبة النسر: إحدى قباب المسجد الأموي، كان كثير من العلماء يدرسون تحتها. انظر: النعيمي، الدارس، 83/1-84، 97.

(31) الكتبي، فوات الوفيات، 388/3.

(32) الغزولي، مطالع البدور، 608/2.

(33) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 231/7.

(34) انظر: الكتبي، فوات الوفيات، 392/2.

(35) ابن عنين، الديوان، ص143.

(36) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص267-238.

(37) المهرق: ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ، ويصقل ثم يكتب فيه. الصحيفة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة هرق.

(38) جامع التوبة: في العقيبة بدمشق، كان مكانه خان الزنجاري للخواطئ والمنكرات، فخربه الملك الأشرف سنة 1234/632، بنى مكانه هذا الجامع، وأتم عمارته، وجددها خطيبه يحيى بن عبد العزيز بن عبد السلام سنة 1251/649. أنظر: النعيمي، الدارس، 426/2؛ المنجد، خطط الشام، ص89.

(39) النعيمي، الدارس، 427/2.

(40) الجِفان: الخمارات، الحانات، الجِفْنةُ: الخمرة. انظر: ابن منظور، م.س.، مادة جفن.

(41) العماد الأصفهاني، خريدة القصر: قسم شعراء مصر، 122/1.

(42) العقيان: الذهب. والتصوب: الانحدار. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة عقن، صوب.

(43) ابن قلاقس، الديوان، ص448-449.

(44) العماد الأصفهاني، خريدة القصر: قسم شعراء مصر،403/2.

(45) ابن النبيه المصري، الديوان، ص229-231. وأخلاط: بلدة عامرة مشهورة، ذات خيرات واسعة، وهي قصبة أرمينية الوسطى، وبها بحيرة من عجائب الدنيا. انظر: الحموي، معجم البلدان، 380/2.

(46) نون البحر: الحوت. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نون.

(47) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 105/3.

(48) انظر: الحموي، معجم البلدان، 186/1-167.

(49) انظر: ابن جبير، تذكرة بالأخبار، ص44-45.

(50) انظر: الحموي، معجم البلدان، 188/1.

(51) الحداد، الديوان، ص153.

(52) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، 258-259.

(53) السرى: السير بالليل، حندس: الليل الشديد الظلمة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة سرا، وحندس.

(54) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص 259.

(55) النون: الحوت . انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نون.

(56) ابن قلاقس، الديوان، ص438.

(57) سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص331.

(58) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص318.

(59) الحدق: تشديد النّظر. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة حدق.

(60) العرنين: أول كلّ شيء، ما صلُب من عظم الأنف، البهتُ: حساب من حساب النّجوم، وهو مسيرها المستوي في يوم. انظر: المصدر نفسه، مادة عرن.

(61) الاصطباح: الشرب وقت الصباح، والإغتباق: الشّرب وقت العشاء. انظر: المصدر نفسه، مادة صبح، غبق.

(62) البوصيري، الديوان، ص150-151.

(63) في البيت اقتباس من قوله تعالى فَول وجهكَ شطْر المسجد الحرامِ، وحيثُ ما كُنْتُم فولوا وجوهكُم شطْره . البقرة، 144/2. ومن قوله تعالى فوقاهم ا ُ شر ذِلك اليومِ ولقّاهم نضرةً وسروراً . الإنسان، 11/76.

(64) في الشطر الثاني من البيت اقتباس من قوله تعالى ثُم ارجِع البصر كرتينِ ينْقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير . الملْك، 4/67.

(65) انظر: ابن جبير، تذكرة بالأخبار، ص162-164.

(66) انظر: المصدر نفسه، ص202.

(67) انظر: المقريزي، المواعظ والإعتبار، 536/2.

(68) الحيمي، حدائق النمام، ص57.

(69) الحداد، الديوان، ص268.

(70) الحداد، م.ن.، ص272-273.

(71) ابن الشعار، قلائد الجمان، م6، ج108/7.

(72) عرقلة الكلبي، الديوان، ص52-53.

(73) المارستان: كلمة فارسية مركبة، وهي تعني محل المرضى، أو بيتهم. والمارستان المنصوري الكبير: يقع بخط بين القصرين من القاهرة، بناه الملك المنصور وقلاوون، مكان الدار القطبية، مع مدرسة وقبة، وأوقف عليه أوقافاً كثيرة، وجعله لكلّ فئات النّاس. انظر: المقريزي، المواعظ والإعتبار، 547/3-552؛ كرد علي، محمد، خطط الشام، 157/6.

(74) البوصيري، الديوان، ص151.

(75) في البيت اقتباس من قوله تعالى وضرب لنا مثلاً ونَسي خَلْقَه قالَ من يحيي العظام وهي رميم يس، 78/36.

(76) صور: أرواح الموتى. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة صور. وفي البيت اقتباس من قوله تعالى قولُه الحق وله الملْك يوم ينفَخُ في الصورِ عالم الغيبِ والشّهادة وهو الحكيم الخبير . الأنعام، 73/6.

(77) ابن الشعار، قلائد الجمان، م3ج4ص400.

(78) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص256.

(79) الحداد، الديوان، ص4.

(80) العمارية: هودج هرمي الشكل. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة عمر.

(81) الغزولي، مطالع البدور، 602/2.

(82) المصدر نفسه، 602/2.

(83) انظر: عرقلة الكلبي، الديوان، ص70؛ كرد علي، خطط الشام، 69/6؛ البوصيري، الديوان، ص152؛ العماد الأصفهاني، خريدة القصر: قسم شعراء مصر، 122/1؛ ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص258-259؛ ابن قلاقس، الديوان، ص438 على التوالي.

(84) انظر: البوصيري، الديوان، ص152.

(85) عرقلة الكلبي، الديوان، ص70.

(86) انظر: كرد علي، خطط الشام، 69/6؛ ابن النبيه المصري، الديوان، ص427؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، 477/3؛ البوصيري، الديوان، ص152؛ النعيمي، الدارس، 416/2؛ الكتبي، فوات الوفيات، 388/3؛ ابن عنين، الديوان، ص143؛ ابن النبيه المصري، الديوان، ص230؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 105/3؛ ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص259؛ البوصيري، الديوان، ص151، الحداد، الديوان، ص268.

(87) النعيمي، الدارس، 427/2.

(88) انظر: ابن النبيه المصري، الديوان، ص427؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، 477/3.

(89) انظر: ابن النبيه المصري، الديوان، ص427؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، 477/3-478؛ ابن قزل، الديوان، ص185؛ الكتبي، فوات الوفيات، 105/3؛ البوصيري، الديوان، ص150؛ ابن الشعار، قلائد الجمان، م6، ج108/7.

(90) ابن النبيه المصري، الديوان، ص427.

(91) انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، 477/3.

(92) ابن النبيه المصري، الديوان، ص427.

(93) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 477/3-478.

(94) انظر: البوصيري، الديوان، ص152؛ ابن قلاقس، الديوان، ص448؛ ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص256.

(95) كرد علي، خطط الشام، 69/6.

(96) ابن الشعار، قلائد الجمان، م1 ج357/1.

(97) انظر: أبو شامة المقدسي، الروضتين، 229/1؛ الكتبي، فوات الوفيات، 105/3؛ ابن النبيه المصري، الديوان، ص231؛ ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص 318 على التوالي.

(98) ابن قلاقس، الديوان، ص438.

(99) انظر: الحداد، الديوان، ص272 .

(100) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 477/3.
(101) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 478/3.
(102) البوصيري، الديوان، ص152.
(103) الكتبي، فوات الفوات، 416/2.
(104) انظر: الكتبي، فوات الوفيات، 388/3، 105/3، الحداد، الديوان، ص273؛ ابن الشعار، قلائد الجمان، م6، ج108/7 على التوالي.
(105) ابن قزل، الديوان، ص145.
(106) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص318.
(107) انظر: ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص 318.
(108) ابن قزل، الديوان، ص185.
(109) ابن عنين، الديوان، ص143.
(110) الكتبي، فوات الوفيات، 105/3.
(111) الحداد، الديوان، ص273.
(112) النور، 35/24.
(113) ابن عنين، الديوان، ص143.
(114) انظر: النعيمي، الدارس، 427/22؛ الكتبي، فوات الوفيات، 105/3.
(115) انظر: ابن النبيه المصري، الديوان، ص 427، 230؛ البوصيري، الديوان، ص152 على التوالي.
(116) انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، 478/3، النعيمي، الدارس، 416/2، 427؛ الكتبي، فوات الوفيات، 388/3؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 231/7؛ ابن عنين، الديوان، ص143، على التوالي.
(117) انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، 477/3؛ البوصيري، الديوان، ص 152؛ ابن قلاقس، الديوان، ص448 على التوالي.
(118) ابن قلاقس، الديوان، ص448.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

البوصيري، محمد بن سعيد، ت696هـ، الديوان، تحقيق محمد سيد كيلاني، 1973، ط2، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

ابن تغري بردي، يوسف، ت874 هـ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، د.ت.، (تراثنا).

ابن جبير، محمد بن أحمد، ت614هـ، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، د.ت.

الحداد، ظافر، ت528هـ، الديوان، تحقيق حسين نصار، 1969، دار مصر للطباعة، القاهرة.

الحموي، ياقوت، ت626هـ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت.

الحيمي، أحمد بن محمد، ت1153هـ، حدائق النّمام في الكلام على ما يتعلّق بالحمام، تحقيق عبد ا الحبشي، 1986/1406، ط2، الدار اليمنية.

ابن رشيق القيرواني، الحسن بن رشيق، ت546هـ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قرقزان، 1988/1408، ط1، دار المعرفة، بيروت.

سلام، محمد زغلول، 1983، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، القاهرة.

ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر، ت764هـ، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.

أبو شامة المقدسي، عبد الرحمن بن إسماعيل، 665هـ، الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، د.ت.

ابن الشعار، كمال الدين المبارك، ت654هـ، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان المشهور بعقود الجمان في شعراء هذا الزمان، تحقيق كامل الجبوري، 2005/1426، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن ظافر الأزدي، علي بن ظافر، ت613هـ، بدائع البدائه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1992/1413، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت.

عرقلة الكلبي، حسان بن نمير، ت567هـ، الديوان، تحقيق أحمد الجندي، 1992/1412، دار صادر، بيروت.

العماد الأصفهاني، محمد بن محمد، ت597هـ، خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء مصر، نشر أحمد أمين وزميله، د.ت، ج1، 2.

ابن عنين، محمد بن نصر، ت630هـ، الديوان، تحقيق خليل مردم بك، د.ت، ط2 [تمتاز بزيادات بخط المحقق]، دار صادر، بيروت.

الغزولي، علي بن عبد ا ، ت 815هـ، مطالع البدور في منازل السرور، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2000/1419.

ابن قزل، علي بن عمر، ت656هـ، الديوان، تحقيق مشهور الحبازي، 2002/1423، مركز التعاون والسلام الدولي، القدس.

ابن قلاقس، نصر ا بن عبد ا ، ت567هـ، الديوان، تحقيق سهام الفريح، 1988/1408، ط1، مكتبة المعلا، الكويت.

كرد علي، محمد، 1983/1403، خطط الشام، ط3، مكتبة النوري، دمشق.

المقريزي، أحمد بن علي، ت845هـ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم وزميلته، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998.

المنجد، صلاح الدين، 1945، خطط الشام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
ابن منظور، محمد بن مكرم، ت711هـ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1955/1375.
ابن النبيه المصري، علي بن محمد، ت619هـ، الديوان، تحقيق عمر الأسعد، 1969، ط1، دار الفكر، بيروت.
النجار، عبد الوهاب، قصص الأنبياء، ط3، [منقحة وبها زيادات هامة]، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
النعيمي، عبد القادر بن محمد، ت927هـ، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، 1988، مكتبة الثقافة الدينية.

Architecture Descriptive Poetry in the 6th and 7th Hijri Centuries: A Subjective and Imagery Study

*Mashhour A. Al-Habazi**

ABSTRACT

The study has tackled some poets work specifically on architecture which attracted their attention in that period for which the poets expressed admiration and appreciation. The study is comprised of seven components: description of schools, mosques, houses and palaces, minarets and mosques minarets, baths, hospitals, and the pyramids. However, the study focused on two aspects: language style and imagery.

The researcher adopted the historical approach in tracing down the related poetry and the time period of the poets. Also adopted the descriptive analytical approach in illustrating the descriptions used by the poets.

The researcher concluded that the poetry on architecture are either long or short poems and that the images are local ones emanating from the environment. The language was clear and the style was overflowing characterized with accurate rhyming, parsing and juxtapositions.

Keywords: The Architecture Descriptive, 6th and 7th Hijri Centuries.

*Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Alquds University, Alquds, Palestine. Received on 29/5/2008 and Accepted for Publication on 19/1/2009.